

تصحيح المفاهيم

دراسة حول التكفير والتفجير وآثارهما

فضيلة الشيخ علي بن عبد العزيز الشبل

المدرس بقسم العقيدة

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض

◆ مفهوم التكفير هو الحكم على أشخاص معينين بالكفر المخرج من الملة وهو ما يسميه العلماء تكفير المعين، ولعل هذا هو المراد بالتكفير عند إطلاقه بين الناس في هذا الزمان. وأيضا التكفير هو الحكم على غير معينين بالكفر المخرج من الملة، سواء أكانوا جماعات أو أهل بلدان أو مذهب أو قوم، وهو ما يسميه العلماء التكفير المطلق. وكذلك الحال أيضا في المراد بالتفسيق، فيقال في المراد كما قيل في التكفير.

مع ملاحظة أن المراد بالتكفير والتفسيق في الاستعمال الملحوظ الآن - ومن خلال واقع الحال - هو التكفير المعين والتفسيق المعين بأشخاص محددين بأعيانهم وأسمائهم، سواء بالحكم الدنيوي أو الحكم الأخروي، أو بهما معا. ولذا صح عن النبي ﷺ أنه قال: "أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه". وفي الصحيح قوله ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر". والتكفير مرحلة خطيرة على العقيدة وعلى الفرد وعلى المجتمعات تسبقها مراحل التبديع والتفسيق، والجميع سائر في مركب الجهل والغوغائية والسفاهة، التي تذيب الخوف وتشيع الكره والافتيات في المجتمع المسلم، ما يكرس معاني الفوضى والهمجية مما لا تحمد عقباه.

هذا، وقد فشلت ظاهرة التكفير قديما، ففي أمة الاسلام رفعت قالة التكفير رأسها في أواخر عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وهي التي تسببت بقتله ثم بمقاتلة الخوارج لعلي والصحابة رضي الله عنهم، في حين بدأ أصلها عقب غزوة حنين، أواخر عهد النبي ﷺ، لما جاء في الصحيحين أن عبد الله بن ذي الخويصرة قال للنبي ﷺ لما قسم غنائم

حنين: يا رسول الله اعدل! فقال النبي ﷺ: "ويحك ومن يعدل ان لم أعدل!" فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: "دعه، فإنه سيخرج من ضئضىء هذا قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم، وقيامكم إلى قيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم"، فكان هذا في فرقة الخوارج ومن تأثر بهم.

● ولا أعرف مكانا محددا لنشوء ظاهرة التكفير والتفسيق ولا سيما المعينين لكن هذه الظاهرة تنمو وتظهر في بيئة الجهل وسوء الفهم والتنزيل لأحكام الشرع المطهر، كذلك تفشو هذه الظاهرة في مجتمع الازدواجية بين المتضادات من خلال الحفاوة بأهل الفسق والزندقة، أو عدم الأخذ على أيديهم بالعلم والبرهان، والقوة والسلطان، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر.

● الواقع أن أسباب ظهور ظاهر التكفير، ونشؤها وانتشارها عديدة، يكمن أهمها في:

١ - الجهل الذريع، وربما الجهل المركب بهذه المسألة المهمة في معرفة الكفر في موارد أدلة الوحي الشريف، والفرق بين الكافرين الأكبر والأصغر، وحال أصحابهما من جهة اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، والفرق بين الكفر المطلق والكفر المعين، والكفر الدنيوي والحكم على صاحبه بالخلود الأخرى في النار.

٢ - اتباع الهوى والأغراض النفسية في تكفير المخالف وذمه والقبح في عرضه بالكفر من دون تبصر بالعلم، وتورع في الديانة.

٣ - اتباع المذاهب البدعية، والأقوال الشاذة، وتقليد الأصاغر في العلم والدين في إطلاق الكفر على الدول والمجتمعات والأفراد.

٤ - الاستهانة بمحارم الله وأحكام شرعه، وعدم الأخذ على يد المكابر والمعلن بقالة الكفر، وأطره على الحق أطراً بقوة البرهان والسلطان! إلى غير ذلك من الأسباب، مع الأخذ بالاعتبار أن كل سبب من هذه الأسباب يحتاج إلى بسط في العرض والتحليل.



● أهم آثار انتشار ظاهرة التكفير والتبديع والتفسيق هو فشو الجهل وخفاء العلم بالدين عقيدة وشريعة. وتشويه سماحة الاسلام وعالميته، كذلك من أهم الآثار اختلال الأمن العام للمسلمين وغيرهم: الأمن العقدي والفكري، والأمن الديني، والأمن الاجتماعي، والأمن السياسي والعسكري، والأمن النفسي، ولاسيما على العقل والدين والعرض والنفس والمال، وهي الضرورات الخمس التي أجمعت على حفظها شرائع الله قاطبة، والنبي ﷺ يقول: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" وفي حجة الوداع في يوم عرفة قال: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا" متفق عليه.



● علاج هذه الظاهرة في فشو حالة التكفير أو التبديع والتفسيق بين الناس، ولاسيما المتعالمين أو المتعجلين في أحكامهم أو الجاهلين بها، هو بعلاج النبي ﷺ وعلاج أصحابه رضي الله عنهم لظاهرة الغلو في الدين، والتجافي عن منهج العدل والوسطية عقيدة وقولا وعملا.

ويتأتى ذلك بوسائل أهمها في ما يبدو لي:

١ - نشر العلم الصحيح الموروث عن الله وعن رسوله ﷺ في الوحيين الشريفين وعلى نبراس من فقه السلف الصالح من لدن الصحابة فالتابعين فعلماء الأمة الفحول رضي الله عنهم ورحمهم. والقضاء بالتالي على الجهل أو محاصرته وهو بيئة التكفير التي يترعرع فيها.

٢ - معالجة الظواهر الفردية بالحكمة والبصيرة اللائقة بها زمانا وواقعا وحالا، ويتأتى هذا بالعلماء الراسخين والحكماء ذوي العقل والفتنة.

٣ - قيام الحاكم الشرعي، والعالم الرباني، والمربي الواعي، كل منهم بواجبه المناط به ديانة وأداء للأمانة الواجبة، وإبراء للذمة ونصحا للأمة إعدارا وإنذارا.

وثمة علاج خاص لمن وقع في شباك هذه الفتنة من خلال مسلكين رئيسيين: أحدهما:

بالرفق واللين والتوجيه والتربية وحسن البيان لمن اشتبه عليه الأمر. والثاني: بأسلوب مقارعة الحجة ودفع الشبهة، والتأديب والتعزير اللاتقيين بالمعاند والمكابر، ومن على شاكلة هؤلاء، وهذا مناط بالقضاة والعلماء.

● نعم إن من يجاهر بكلام يصل الى الكفر أو يدل على الردة عن الديانة، والزندقة في الملة، فإنه يدل على رقة الدين وضعفه في قلبه أو اضمحلاله، ثم يولد رد فعل عكسيا بتكفيره إما مقالة أو عينا. فهذه الظواهر الاستغزازية من أولئك مصدر من أهم مصادر التكفير والتبديع. والموقف مع هؤلاء له مراتب وأحوال:

— فمن ذلك النصح لهم ودعوتهم ثم إنكار قولهم عليهم بالأسلوب اللائق، وكل مقالة يتفوه به كل منهم.

— ثم من لم يتب منهم ويرجع عن غيه، فبإقامة حكم الشرع عليه من دون مجاملة ولا محاباة لأحد في دين الله عز وجل.

كما يجب على مسؤولي الإعلام تقوى الله، وألا يؤذوا عباد الله بمثل تلك المقالات والطروحات الخطيرة التي تستفز دين الأمة وعقيدتها، وأن تحترم ذلك كما تحترم سياسة دولتها، هذا والمسلم العاقل له في الناس — كل الناس — نظران:

١ — أن ينظر اليهم بعين الحكم الشرعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، والنصح والدعوة، لكل بحسبه.

٢ — وأن ينظر اليهم بعين القضاء والقدر، فمن كان منهم منحرفا في قوله أو فعله أو عقيدته رحمه بذلك، وحمد الله أنه لم يكن مثله، وأن الله قد عافاه مما ابتلى به غيره، فقلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء.

لو شاء ربك كنت أيضا مثلهم

إن لا تُرد مشيئة الديان

● وواجب العلماء كبير ومهم وخطير في البدء والنهاية، وعلى مختلف الأصعدة

والمستويات، والمؤمل فيهم المبادرة الى توجيه الناس وتربيتهم على الحق والخير، ودعوتهم اليه وحملهم عليه.

كما يجب على الناس وذوي الغيرة الرد الى العلماء ولاسيما في مثل هذه المسائل الدقيقة ومن ذلك مشكلات التكفير والتبديع والتفسيق، والصدور عن توجيه العلماء ورأيهم، ولا يجوز من ذوي الحماسة والاندفاع الاستهانة بأهل العلم وأحكامهم وفتاواهم ورأيهم، وهذا لا يجوز أيضا من ذوي التخاذل والاستكانة وقلة الغيرة على دين الله وشرعه، فكل طرفي قصد الأمور ذميم.

التفجيرات وأثرها في الفساد

إن إرهاب الأمنين وتخويفهم وإشاعة الخوف فيهم من صنائع أهل البغي والخروج، الذين سلمت منهم دماء المحاربين من أهل الكفر، وأعملوا القتل في أهل الاسلام، كما ان التفجير في المجتمع المسلم الذي فيه ولاية شرعية وأمن وطمأنينة - كمجتمعنا ولله الحمد - من السعي في الأرض فسادا، ومن إهدار الأرواح والأموال والأمان بين المسلمين، ولو كان هذا الفعل موجها الى كافر له معنا عهد وميثاق، فإن ذمة المؤمنين واحدة، يسعى بها أديانهم.

وعليه، فإن عمليات التفجير والقتل التي تتطاول المسلمين في بلاد الاسلام محرمة عظيم جرمها، وكذا ما طاول المستأمنين أو المعاهدين ممن لهم عهد وأمان من الكفار في معاهدات ومواثيق منحت لهم من ولاية المسلمين الشرعية، لها من الحرمة والخطورة ما دلت نصوصها الشرعية وقواعدها ومقاصدها عليه من وجوه كثيرة يدركها أهل العقل والحكمة فضلا عن العلماء والفقهاء، وتغيب أو تُغيب عن مدارك الصبيان والجهال وأنصاف المتعلمين والله المستعان.

